الجنوب المغربي في رواية"صحراء"

لجون ماري جوستاف لوكليزيو

خاليد مجاد

باحث–الرباط

1– متن الرواية الحكائي:

تقع رواية "صحراء(1) (للكاتب الفرنسي ج. م. ج. لوكليزيو (2) في أربعمائة وتسع وثلاثين صفحة، وتتكون من قصتين(3). تدور أحداث القصة الأولى في زمن ماضي الديمومة، وأحداث القصة الثانية في الزمن الحاضر.

1–1– "القصة أ": تدور أحداث هذه القصة في بداية القرن العشرين؛ خلال المرحلة الممتدة ما بين سنتي 1909و1912، في فضاءات متعددة أهمها: منطقة واد الساقية الحمراء، منطقة واد درعة، السمارة، كلميم، تارودانت، منطقة واد تادلة، ضواحي مدينة مراكش، تزنيت، وأكادير.

تنطلق أحداث "القصة أ" ببزوغ مجموعة من الرحل، ومن بينهم عائلة نور، البطل الرئيسي في القصة، خلف إحدى التلال الرملية لوادي الساقية الحمراء، قاصدين مدينة السمارة، لتلبية نداء الشيخ ماء العينين الذي دعا مختلف القبائل الصحراوية للقدوم إلى السمارة، قصد الرحيل صوب الشمال المغربي، للمشاركة في الجهاد ومواجهة الغزو المسيحي للمملكة الشريفة، وأيضاً من أجل البحث عن مناطق تصلح للاستقرار، ويتوفر بها كلأ الماشية، بعد أن احتلت عساكر "النصارى" الصحراء، ومنعت عن أهلها منابع المياه وحقول الرعي.

بعد اجتماع القبائل الصحراوية في مدينة السمارة، سيقرر الشيخ ماء العينين الاتجاه صوب الشمال، رفقة محاربيه (المحاربون الزرق)، وكتائب أبنائه الحربية وكل القبائل الصحراوية، بعدما انعدم الأمن في الصحراء، وأصبح المستعمر عند أبواب السمارة، واستولى على كل الواحات والآبار، وقطع طرق القوافل، حتى يحاصر القبائل الصحراوية المتمردة.

ستنطلق الرحلة صوب الشمال المغربي، بدءاً من السمارة ومروراً بتزنيت وتارودانت، ثم مراكش وقصبة تادلة. وسيعرف الصحراويون خلال هذا السفر المضني الموت والمعاناة والجوع والخوف والخيانة. وخلال مسيرهم سيمرون بمحاذاة العديد من القبائل والمدن المغربية التي مد بعضها يد العون لهم، والتحق بعضها بمسيرهم للمشاركة في الجهاد، وكان منها من اعترض سبيل الشيخ ماء العينين لطلب البركة أو الشفاء من بعض الأمراض، ومنها من امتنع عن مساعدتهم، كما حصل مع مدينة تارودانت التي رفض أهلها تزويدهم بالمؤن، ومنْحهم أراض لمواشيهم، وذلك ما سيدفعهم إلى التقدم صوب الشمال، حتى واجهوا في يونيو من سنة 1910 الجيش الفرنسي في منطقة واد تادلة، فهزمهم الفرنسيون هنالك هزيمة قاسية، وقتلوا منهم أعداداً كبيرة، فعاد على إثر ذلك عدد كبير من الصحراويين إلى الجنوب. أما ماء العينين فقد رجع رفقة بعض محاربيه الزرق، وبطل الرواية الطفل نور، إلى مدينة تزنيت، حيث سيموت هنالك وحيداً، خلال شهر أكتوبر من سنة 1910.

كما هُزمت كتائب أبناء ماء العينين، لغضف وسعدْ بوه، أمام الغزاة الذين تمكنوا في النهاية من احتلال مدينة السمارة، أما ابن ماء العينين البكر مولاي أحمد الهيبة، فقد هُزم بدوره عند ضواحي مدينة أكادير، في مارس من سنة 1912، على يد المستعمر الفرنسي، وهو برفقة حشود كبيرة من القبائل الصحراوية والأمازيغية. وقد دفعت الهزائم المتكررة شخصية الطفل نور، وما تبقى من قبائل الصحراء للعودة إلى نقطة الانطلاق وفضاء الحرية اللامتناهي، الفضاء الصحراوي.

1-2- "القصة ب":قسّم المؤلف "القصة ب" إلى قسمين:"السعادة" و"الحياة لدى العبيد". تدور أحداث القسم الأول في فضاءات الجنوب المغربي، بحي صفيحي، يتاخم إحدى مدن الجنوب المغربي، ويشرف على فضاءات ايكولوجية متنوعة (البحر والصحراء والمرتفعات). أما القسم الثاني فيدور في مدينة مرسيليا، بأحد أحياء المهاجرين الهامشية. وتدور أحداث "القصة ب" في الزمن الحاضر، حيث يوازي زمن الحكي زمن القراءة.

أ- السعادة: يروي هذا القسم قصة الطفلة "لالة حوا" التي عاشت في أعماق وادي الساقية الحمراء، لكن وفاة والديها ستدفع عمتها القاطنة بأحد الأحياء الصفيحية بالأطراف الشمالية للصحراء، إلى استقدامها لكي تعيش مع عائلتها، وهكذا ستُفتن حوا رفقة صديقها "الحرطاني"، الراعي الأبكم، بالفضاء الايكولوجي المتنوع للمنطقة التي تدور فيها وقائع هذا القسم. ستتعلق الطفلة كذلك بالصياد العجوز نعمان الذي يتحفها بحكاياته الرائعة التي ترتبط إما بقصص خرافية، أو بمغامراته البحرية، أو بتجاربه المتعددة في المدن الأوروبية الخلابة. ويتميز هذا القسم، أيضاً، بالوصف الدقيق لجميع المكونات

الطبيعية التي تؤثث الفضاء الذي تدور فيه الأحداث (حيوانات، حشرات، نباتات، تضاريس، بحر، ظواهر طبيعية)، وكذلك وصف المشاعر والانفعالات الناتجة عن التناغم مع هذا الفضاء الفريد، فإحساس بطلة القصة بالتحرر والحب، وانسجامها مع وسطها الطبيعي والإنساني المتنوع والبسيط، هو مصدر سعادتها، رغم صعوبة وضعها الاقتصادي والاجتماعي، لكن قدوم أحد أثرياء المدينة لخطبتها سيضع حداً لتلك السعادة، حيث ستصبح الشخصية مهددة في حريتها وحبها، مما سيدفعها، بعد موت العجوز نعمان، إلى الهروب رفقة حبيبها الحرطاني صوب أعماق أرض الجنوب، وفي الطريق سيمارس الشابان الحب بكل حرية، لكن عدم قدرة لالة حوا على مجابهة الظروف القاسية للرحلة في الصحراء، خلافاً للحرطاني، سيوقف تقدمّها، وستسقط في الفلاة مغمى عليها.

ب– الحياة لدى العبيد: ستنقذ عناصر من الصليب الأحمر الدولي، لالة حوا من الهلاك المحقق في الوسط الصحراوي، وستُحمل بعد ذلك، إلى مدينة مرسيليا الفرنسية، حيث ستلتقي هنالك من جديد بعمتها التي هاجرت سرياً إلى مرسيليا لإعالة أسرتها المعوزة. وفي هذه المدينة ستتعرف حوا على واقع مخالف تماماً لما كان يحكيه الصياد نعمان عن جمال وروعة المدن الأوروبية، إذ ستلاحظ الشخصية الوضع المأساوي للمهاجرين الذين يعيشون كالعبيد في أعمالهم الشاقة، وكالسجناء في بيوتهم الرطبة والمتهالكة، بسبب تردي أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية.

ستأخذ الأحداث مجرى آخر بترك لالة حوا لبيت عمتها في إحدى الليالي الممطرة، حيث سيدفعها التسكع في أزقة مرسيليا إلى تعرُّف وعيش الواقع الحقيقي للمدينة؛ إذ ستلاحظ الشخصية التفاوت الطبقي الرهيب، والأوضاع المأساوية التي يعيشها المهاجرون، وكل المهمشين من العمال الأجانب والمتسولين والعاهرات، إضافة إلى المعاملة غير الإنسانية التي يلاقونها من طرف السلطات الفرنسية. وفي هذه المدينة ستتعرف لالة، أيضاً، على المعنى الحقيقي لـــلخوف، والجوع، والبؤس، والإقصاء، والحرمان، والمرض، وفي ذات الظروف القاسية ستلتقي لالة بشاب غجري (راديتش)، باعته والدته لأحد محترفي التسول في الأماكن العامة، والذي سيصبح صديقها الوحيد في المدينة المتوحشة، وعن طريقه ستتعرف لالة حوا على المدينة وعلى هوامشها بالخصوص. لينتهي بها المطاف منظفة في أحد الفنادق الوضيعة الخاصة بالعمال المهاجرين.

وستترك الشخصية العمل بالفندق الذي أضحى لديها معادلاً للموت، لتلتقي بعد تحررها من عمل الفندق بالمصور الذي سينبهر بجمالها الاستثنائي، ليقترح عليها بأن تصبح فتاة غلاف(cover-girl). وهكذا سيجعل منها العمل الاستعراضي، فيما بعد، نجمة مشهورة، تملأ صورها المجلات والصحف

الفرنسية. إلا أن هذا الوضع المخملي لم يخلخل أصالتها وحبها لثقافتها وللطبيعة الصحراوية، وللحرية بشكل خاص. سيموت راديتش في مطاردة بوليسية أمام أعينها، وهذا ما سيدفعها في إحدى ليالي الصيف إلى الخروج من شقة المصور خلسة، لكي تعود إلى أرض الجنوب، حيث ستنجب هنالك ابنتها، وثمرة حملها من صديقها "الحرطاني"، قرب البحر وتحت ظل شجرة التين، حيث كانت تأتي لمشاهدة الطيور والبحر، ولسماع حكايات الصياد نعمان.

2- الخلفية التاريخية في الرواية: يعد التاريخ في هذه الرواية أحد أهم مكوناتها المضمونية، وأقوى الأسس المعتمدة في بناء أحداثها، ويتمثل ذلك بالتحديد، في اعتماد تاريخ المقاومة المغربية في منطقة الساقية الحمراء، كخلفية صلبة لتخيل أحداث "القصة أ"، وذلك ما يشكل أرضية للتساؤل عن الكيفية التي وظف بها المؤلف تاريخ المنطقة في عمله، وأيضاً عن دوافع ووظائف استخدام التاريخ في الرواية، وعن القيم التي ينشدها من وراء ذلك الاستخدام.

يتجلى توظيف التاريخ في "القصة أ"، من خلال استعراض الكاتب لمسار المقاومة الصحراوية ضد المستعمر الفرنسي، والذي يمكن إجماله في أربع محطات كبرى:

أ- المحطة الأولى: اجتماع قبائل الصحراء بمدينة السمارة (خريف 1909- 1910)، تلبية لنداء الشيخ ماء العينين، الذي دعا قبائل سوس والساقية الحمراء وشنقيط وقبائل من الصحراء الكبرى لمحاربة المستعمر الفرنسي، غازي الصحراء والمملكة الشريفة. لذا فقد قدِمت القبائل المجاهدة من كل حدب وصوب إلى المدينة المقدسة، من أجل حماية أرض الأحرار وبيضة الإسلام. يقول سارد القصة: "سمع نور، مرة أخرى، الأسماء التي ينطقها والده، أسماء رؤساء القبائل المحاربة، ورجال الأساطير، معقل، وعريب، وأولاد يحيا، وأولاد الدليم، والعروسيين، واشركيين، والركيبات ذوو اللثم السوداء، وأولئك الذين يتكلمون لغات الأمازيغ، إيداو بلال، وإيداو مريبات، وأيت باعمران، وكذلك القبائل المجهولة الأسماء، القادمة من تخوم موريتانيا، وتيمبكتو."(4)

ب- المحطة الثانية: مواجهة قصبة تادلة (18 يونيو 1910): فبعد الاجتماع بمدينة السمارة، ستتجه القبائل المقاومة بزعامة ماء العينين صوب الشمال المغربي لقتال المستعمر الفرنسي، لتواجه بقصبة تادلة مجموعة من المجندين السنغاليين تحت إمرة الجنرال موانيي، وتنْهَزم بسهولة كبيرة أمام أسلحتهم الفتاكة.

ج- المحطة الثالثة: الفرار نحو تزنيت: هنا سيقرر الشيخ ماء العينين وما تبقى من المقاومة الصحراوية، وبطل "القصة أ" نور الفرار صوب مدينة تزنيت، حيث سيموت الشيخ هنالك من شدة الغيظ بعد الهزيمة النكراء، وبعد تعرض عائلته للشتات؛ إذ سيحتمي أبناؤه بمناطق متعددة في وسط

المغرب وجنوبه، حتى يواصلوا مناوشة المستعمر الفرنسي، يقول سارد القصة واصفاً وضع ماء العينين في تيزنيت، على لسان مبعوثي الجنوب: "الشيخ الأكبر ماء العينين ينازع الموت، إذ توقفت عيناه عن الإبصار، وشفاهه عن الكلام.»... الشيخ الأكبر سيموت في المترل الأكثر بؤساً في تزنيت، كالمتسول، بعيداً عن أبنائه وشعبه."(5)

د- المحطة الرابعة: مواجهة أكادير (مارس 1912): ستلاقي، مرة أخرى، القبائل المقاومة من أهل الصحراء وأهل سوس، بعد هزيمة قصبة تادلة، القوات الفرنسية الغازية للمنطقة بزعامة الجنرال مانجان، وستنهزم مرة أخرى أمام الجنود الفرنسيين المدججين بأعتى الأسلحة. لتعود كل الشخصيات إلى نقطة انطلاقها، الفضاء الصحراوي الشاسع.

3- تخييل التاريخ في الرواية: لا يحتاج من يطالع الرواية إلى كبير جهد، لملاحظة الحضور المكثف للمعطيات التاريخية في "القصة أ"، ذلك أن المؤلف يستثمر بشكل لافت، تاريخ المقاومة المغربية في الجنوب خلال الفترة الممتدة ما بين سنتي 1909 و1912، حيث نجد أغلب الأحداث الموظفة في هذه القصة واقعية: (إغراق المغرب في الديون الخارجية خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، اتفاقية الجزيرة الخضراء، عقد الحماية سنة 1912، معركة قصبة تادلة سنة 1910، معركة أكادير سنة 1912). والأمر نفسه بالنسبة للشخصيات، سواء في الجانب الفرنسي أو المغربي: (الحاكم كوبولاني(6)، كاميل دو(7)، الطبيب موشون(8)، الجنرال موانيي(9)، الكولونيل مونجان(10)، الشيخ ماء العينين، أحمد الهيبة، محمد لغضف، السلطان مولاي عبد الحفيظ). يضاف إلى ذلك أن أغلب فصول القصة مؤطَّرَة بسياقات مكانية وأخرى زمانية، لأن لوكليزيو مهووس، كما يبدو، بالتأطير التاريخي: "أختار تاريخاً لأني متشبع بمذاقاته. أحب أن أضبط الزمن وأن أنضبط له. عندما أطالع رواية وأصادف تواريخَ أتفحصها، لا أدعها تمر هكذا، وأبحث عما تعنيه"(11). كما أن المعرفة الكبيرة بالقبائل والثقافة والبيئة الصحراوية في الرواية، تستند إلى وثيقة تاريخية مهمة ترجع إلى نهاية القرن التاسع عشر (1887)، وتتمثل في تقرير المستكشف والمستشرق الفرنسي كاميل دو عن المنطقة، الذي قام بمسح جغرافي وأنثروبولوجي في غاية الدقة للفضاء الصحراوي إضافة إلى لقائه بالشيخ ماء العينين(12).

وبما أن غاية الروائي تختلف عن غاية المؤرخ في استخدام الوثيقة التاريخية، فقد استثمر المؤلف كل هذه المعطيات التاريخية وعلى رأسها وثيقة كاميل دو، وما طالعه عن الرحالة ثيودور مونو

(Théodore Monod) والإثنوغرافي ميشيل ليريس (Michel Leiris)(13)حتى يدافع عن فكرة أساسية مفادها؛ أن استعمار الشعوب المستضعفة، وسلبها حريتها وكرامتها سلوك بربري، ولا يمكن أن تبرره أية ذريعة ممكنة، لذا نجد سارد "القصة أ" الشاهد الرئيسي على الأحداث الدائرة في السياق الزمني الممتد ما بين سنتي 1909و1912، يتبنى وجهة نظر أهل الصحراء، ويصف بكثير من التعاطف، وضعياتهم المأساوية نتيجة استعمار الفرنسيين لأرضهم، ويدين الاستعمار وأتباعه (خونة ماء العينين من القبائل المغربية) من خلال وصف معاناة الرحل وشتاتهم، أثناء نزوحهم التراجيدي صوب الشمال المغربي، بحثاً عن الحرية والكرامة المفتقدة، وكذلك من خلال وصف المجازر الوحشية التي تعرضوا لها من طرف الاستعمار الفرنسي وجيوشه المدججة بأكثر الأسلحة تطوراً.

وهكذا، يتضح أن توظيف التاريخ في الرواية له وظيفة محددة، هي إدانة الاستعمار في قالب فني متميز، ولغة رفيعة تقترب أحياناً من اللغة الشعرية، لأن من وظائف الروائي في تعامله مع المعطيات التاريخية، أن يكتب تاريخ المقموعين والمهمشين غير المرحب بهم، غالباً، في كتب التاريخ العام، كما يرد على لسان فيصل دراج: "يكتب الروائي التاريخ الذي لا يكتبه المؤرخ، أي تاريخ المقموعين والمضطهدين والمهمشين، ذلك التاريخ المأساوي، الذي يسقط في النسيان وتتبقى منه آثار متفرقة، يبحث عنها الروائي طويلاً، ويضعها في كتب لا ترحب بها" مكتبات الظلام"".(14)

4- الخلفية الثقافية في الرواية: يستثمر المؤلف، إضافة إلى التاريخ، التراث الصوفي لمنطقة الساقية الحمراء، حيث يستعيد سارد "القصة أ" طقوس الحضرة الصوفية الموحّدة لكل الفئات العرقية والجنسية في الفضاء الصحراوي، كما يُبرز أهمية الموسيقى في الطقوس الصوفية، وكذا مكانة رجالات التصوف والأضرحة في ثقافة الشخصية الصحراوية. ورغم أن سارد القصة غير مشارك في الأحداث، إلا أن تعاطفه مع ثقافة الشخصيات تبدو في اللغة التي يصف بها المؤلف تلك الطقوس، أكثر لطفاً واستبطاناً للمعتقد والعرف والفن الصحراوي.

يضمّن المؤلف روايته، كذلك، مجموعةً من العادات والعقائد والمواسم والأعياد والفنون الصحروية، حتى يبرز الغنى والتنوع الثقافي للفضاء المنكتب في الرواية. لكن يبقى الأهم هنا هو السؤال المرتبط بالوظيفة الأساسية لهذا الحضور الثقافي، والرسائل التي تحملها استخداماته.

يعد التصوف من أكثر الأشكال الثقافية الصحراوية حضوراً في متن "القصة أ"، إذ يستدعي المؤلف مجموعة من الطقوس الصوفية التي شهدتها مدينة السمارة في الزمن المحكي، حيث يقترب السارد بشكل أكبر من أجواء الحضرة الصوفية، ليصف وقع الأذكار والأوراد الجماعية على الرحل، والتي

توحدهم مع السماء والأرض، وتلغي كل شيء من حولهم، وتقرب كل مأمول لديهم، وتمكنهم من القيام برحلة غير مرئية، تسمح لهم بتجاوز المكان والزمان، وتمكنهم من ارتياد آفاق مفارقة للواقع، حيث يختفي الذكر عند ذروة الحضرة، فلا يسود غير أصوات أنفاس الرجال والنساء: "كان صوت تمزق الأنفاس كبيراً، وقوياً وكأن الجميع قد غادر السمارة بعيداً، عبر السماء، وبواسطة الرياح، متمازجين مع ضوء القمر، وفي النهاية مع غبار الصحراء. وهكذا لم يكن الصمت ممكناً، ولا الوحدة كذلك. لقد ملأ صوت الأنفاس كل الليل، وغطى كل الفضاء."(15)

ترتبط الموسيقى بدورها، في الفضاء الصحراوي بطقس الحضرة الصوفية، حيث توحد الإيقاعات الموسيقية إيقاع الذكر الجماعي لأتباع الشيخ ماء العينين، ليفضي التناغم الحاصل بين الموسيقى والرقص وعناصر الطبيعة والإنسان في طقس الذكر الجماعي، إلى تحقيق نوع من التطهير يرفع عن الرحل الحيرة والخوف والتعاسة والإحساس بالتهديد، بل يؤدي حتى إلى انمحاء مفهوم الزمن في قمة الحضرة الصوفية.

كما يحتل الضريح ،كأحد المكونات الأساسية في الثقافة الصوفية، مكانةً مهمة لدى شخصيات "القصة أ"، حيث يصف السارد، بكثير من الدقة، السكون والهدوء الذي شعرت به شخصية والد نور بعد زيارة الضريح، والقيام بالطقوس المرتبطة بالمناسبة، ذلك الشعور الذي سيدفع الشخصية إلى نسيان طول الرحلة والجوع والعطش، وسيمنحها قوة أخرى ستحملها إلى أزمنة مغايرة للزمن البشري، هذا الزمن الذي يبحث عنه الكاتب نفسه، كما يرد على لسان ج. دو كورتونز: "لوكليزيو يبحث عن مسارٍ ومفهومٍ آخرين للزمن، وقد وجدهما عند هؤلاء الناس المختلفين عنا"(16). كما أن ذلك الشعور سيجعل الشخصية مشاركةً للفضاء الصحراوي في سماته الأساسية: الصمت والسكون والغياب، فزيارة الضريح وممارسة الطقوس الضرورية، تفضي إلى نوع من التسامي والارتفاع عن الواقع الكائن.

يوظف المؤلف في "القصة ب" (قسم السعادة)، العديد من العناصر الثقافية التي تطبع حياة الشخصيات، كالمواسم والأعياد والعادات والمعتقدات، حيث ينقل السارد، مثلاً، أجواء رمضان في الصحراء، عندما يتمدد الزمن النفسي، فتصبح الأيام والساعات أكثر طولاً من المعتاد، وتتوقف جميع النشاطات الشاقة طيلة شهر الصوم، في انتظار حلول يوم العيد، ويصف وطء الجوع والعطش على أجساد الصحراويين، وما يفرضه الموقف من حذر تجاه كل ما يمكن أن يفسد قدسية المناسبة.

لا يدع المؤلف كذلك مناسبة عيد الأضحى، وما تكتسيه من أهمية في الثقافة الإسلامية، تمر دون كتابتها في النص، حيث يصف سارد "القصة ب" فرحة الناس بقدوم العيد وبذهاب شهر الصوم،

إلا إن شخصية **لالة حوا** ذات الحساسية المفرطة، ينتابها نوع من الحزن وبعض المشاعر الغريبة، بسبب تعاطفها مع خروف العيد، فالشخصية تَكْره عيد الأضحى بسبب تعرض الكبش للذبح، لكنها تعشق، في الآن نفسه، شرائحه المشوية وتتلذذ برائحتها ومذاقها.

تتميز رواية "صحراء" في "القصة ب"، كذلك، باستثمارها للعادات المحلية للقبائل الصحراوية، كما يتجلى ذلك في وصف سارد "القصة ب"، بكثير من الدقة، لعادة الحمامات العمومية في الجنوب المغربي؛ إذ يصف الدخول الأول لشخصية لالة حوا إلى الحمام العمومي، وما صاحب ذلك من انبهار للطفلة بالأجساد العارية، واستحيائها من بقية النسوة مخافة أن يهزؤوا بها، وكيف ستنسجم مع أجواء الحمام العمومي بعد تكرار زيارته. ومن ثم يبدو الحمام العمومي في الصحراء مجالاً لاستعادة الطبيعة وللمساواة ولتفهّم الاختلافات: "أحست لالة في البداية بالخجل، إذ لم ترغب في الظهور عارية تماماً أمام بقية النسوة، لأنها لم تتعود ولوج الحمامات، واعتقدت بأنهن سينظرن إليها بسخرية، لأنها لم تُنبِت الثديين بعد، إضافة إلى شدة بياض بشرتها. لكن عمة وبختها، وأجبرتها على نزع كل ملابسها، ثم رفعت شعرها الطويل وشدته عند القفا، وربطته بخيط ثوب. لقد غدا الآن، التجرد من الثياب وعدم مبالاتها بالآخرين، أمراً مألوفاً لديها."(17)

لا تخلو صحراء لوكليزيو كذلك، من بعض مظاهر الفن لدى أهل الصحراء في قصتي الرواية، خصوصاً الموسيقى والغناء، إذ تحضر الموسيقى والرقص في "القصة أ" كعنصرين أساسين في الطقوس الصوفية عند أهل الصحراء، بينما تستعاد الموسيقى والغناء في "القصة ب" كأداة للمساعدة على مواصلة الحياة الهشة لدى شخصيات القصة، وتحضر شخصية لالة حوا الأم، التي أجادت العزف على القيثارة والناي وأتقنت الرقص، وأدّت الأغاني بصوت جميل، مما يؤشر إلى احتفاء الثقافة الصحراوية بالموسيقى والغناء.

5- وظيفة الثقافة في الرواية: يتبين من خلال تحليل الخلفية الثقافية في الرواية، أن المؤلف، استثمر التراث الصوفي لمناطق الجنوب المغربي، مدينة السمارة تحديداً، حتى يبرز مكانة المعتقد والعرف في ثقافة الفضاء المنكتب في العمل الروائي، كما استثمر المواسم والعادات والفنون من أجل إبراز الغنى والتنوع الثقافي بالفضاء الجنوبي، وقد اتضح في هذا الجانب مدى قدرة المؤلف على استيعاب وتفهّم جزء مهم من ثقافة المنطقة، من خلال موقع السارد الذي يترك للشخصيات مجالاً كبيراً للتعبير عن معتقداتها وثقافتها دون إبداء أية تعليقات، أو تأويلات تبرز أي تبرّم أو تحفظ تجاه ثقافة أهل الصحراء. ومن ثم نجد أن الفكرة الأساسية التي يحاول المؤلف تبليغها من خلال هذه القصة، أن للشعوب الحق في العيش

.بمعاييرها وتصوراتها الخاصة للكون، فلا حق في استعمار الشعوب وسلبها حريتها وكرامتها، تحت أية ذريعة ممكنة. فـــقصتا الرواية رسالتان تدينان الاستعمار والحرب والتمركز حول الذات، وتدعوان إلى احترام اختلاف الآخرين عن الذات.

وإجمالاً فقد حاولنا في هذا المقال استعراض أهم تمظهرات تاريخ وثقافة الجنوب المغربي في رواية "صحراء"، بغاية الكشف عن خلفيات وكيفيات توظيفها من طرف المؤلف، لنصل في النهاية إلى مجموعة من الاستنتاجات، نجملها فيما يلي:

أ– لم يوظف الكاتب مكون التاريخ في الرواية من أجل إبراز الاستضعاف والحيف التاريخي الذي لحق ساكنة منطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب من طرف الاستعمار الفرنسي فحسب، بل وظف التاريخ كذلك بغية إدانة الاستعمار كفعل يسلب الشعوب الحق في الحياة والكرامة والحرية في كل السياقات الزمنية والمكانية، ويغتال قيم الإنسانية التي ترفعها الحداثة الغربية، ويكشف وجهها البشع الذي يرفع لواء التحديث والتحضير كغطاء لغزو بقية الأمم، ويخفي قيم الاستعباد وسلب كرامة وحرية الشعوب، ومحاولة تنميطها، وتجرديها من كل قيم اختلافها.

ب– أما توظيفه للثقافة فيتجاوز مجرد النقل الحرفي لبعض مظاهر الثقافة الصحراوية، إلى محاولة الكشف عن الكثير من أوجه التفوق في هذه الثقافة كالتعايش الثقافي، والانسجام مع الواقع الايكولوجي، والتحرر الحقيقي، والاحترام القائم بين الجنسين(18)، ويتضمن استثمار عناصر الثقافة الصحراوية في الرواية، كذلك، نبذ كل أشكال المرْكَزَة والتفوق المؤسسِّة للثقافة الغربية الحديثة، والتي تسوغ لها استغلال الشعوب الأخرى تحت ذريعة تحديثها وإخراجها من حظيرة التخلف، لذا فرسالة المؤلف باختصار هي: الدعوة إلى احترام الاختلاف الثقافي، وعدم الاعتقاد بأفضلية ثقافة على أخرى، وجعل ذلك مطية للاستعمار والاستغلال.

الهوامش

1- Jean Marie Gustave Le Clézio, Désert, Editions Gallimard, Paris, 1980.

2– ولد جون ماري جوستاف لوكليزيو في مدينة نيس يوم 13 أبريل سنة 1940، ينتمي لعائلة ذات أصول بروطونية، هاجرت إلى جزيرة موريس خلال القرن التاسع عشر. لم يتوقف لوكليزيو (الرحالة الكبير) عن الكتابة منذ سن السابعة أو الثامنة، وقد تنوعت كتاباته بين الأشعار، والحكايات، والروايات، والقصص، والتراجم، والأعمال الاثنولوجية، فكان أول ما نشَره روايته "المحضر" (le procès-verbal) التي ظهرت سنة 1963، وحصلت على جائزة "رونودو" (Renaudot).

, 1963. -Terra amata. Paris: Gallimard, 1967. -Le Livre des fuites. Paris: Gallimard, 1969. -Haï. Genève: Albert Skira, 1970. -Les Géants. Paris: Gallimard, 1973. -L'Inconnu sur la terre. Paris: Gallimard, 1978. -Désert. Paris: Gallimard, 1980

3- سنشير خلال التحليل إلى القصة الأولى، بـــ "القصة أ"، والقصة الثانية بـــ "القصة ب".

4- Désert, p. 42.-

5- Ibid, pp. 399.

6- كزافيي أنطوان كوبولاني (Xavier Antoine Coppolani) ولد سنة 1863 بمارينيانا (كورسيكا)، ومات مُغتالاً سنة 1905 بتيدجيكجا (موريطانيا). وقد أعتُبر أحد أبناء الشيخ ماء العينين، الذي بُعث من طرف والده لمقاومة الاستعمار الفرنسي في الأدرار بموريطانيا، السبب الرئيسي في اغتياله. يعد كوبولاني أحد أهم أطر الإدارة الاستعمارية الفرنسية.

7- كاميل دول(Camille Douls) مستكشف فرنسي. ولد في 18 أكتوبر من سنة 1864 بسيفيراكليكليز بفرنسا، وتوفي في 6 فبراير من سنة 1889 بمنطقة الأقبلي بالجزائر.

8- إميل موشون (Emile Mauchamp) ، طبيب فرنسي، ولد في 3 مارس من سنة 1870 بشالون سير ساون، وتوفي في 19 مارس من سنة 1907 بمدينة مراكش، مغتالاً قرب مصحته بمراكش، بعدما تلقى العديد من الطعنات القاتلة. لقيت وفاته أصداءً واسعةً في المحيط السياسي والمدني الفرنسي آنذاك، وقد كان من بين الذرائع التي سوغت للاستعمار الفرنسي الدخول إلى المغرب.

9- الجنرال موانيي (Le Générale Moinier) أحد جنرالات الحماية الفرنسية بالمغرب. هزم المقاومة المغربية بزعامة الشيخ ماء العينين في يونيو من سنة 1910 بمنطقة تادلة.

10- شارل مانجان (Charles Mangin). جنرال فرنسي. ولد بساربو في 6 يوليوز سنة 1866، ومات بباريس في 12 ماي سنة 1925، اقتنع بأهمية المجندين السنغاليين في الغزو الاستعماري الفرنسي، فكان مؤيداً متحمساً لجيش إفريقي (القوات السوداء) أكثر عدداً وقوة، في خدمة فرنسا الكلونيالية.

11- J. M. G. Le Clézio, in Gérard de Cortanze, J.M.G. Le Clézio, Le nomade immobile, Editions Gallimard, Paris, 1999, p. 2 -11

12- Camille Douls, « Voyage d'exploration à travers le Sahara occidental et le sud marocain », in *Bulletin de la Société de géographie*, VII[e] série, t. IX, Paris, Société de Géographie, 1888, p.437-479. http://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k377277/f442

13- Gérard de Cortanze, J.M.G. Le Clézio, Le nomade immobile, Editions Gallimard, Paris, 1999, p. 211. -

14- فيصل دراج، "الرواية وتأويل التاريخ" نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي –يروت، **2004**، ص. 369.

15- Désert, p.71. -

16- Gérard de Cortanze, J.M.G. Le Clézio, Le nomade immobile, p. 219.

17- Désert, p. 163.

18- تجدر الإشارة هنا إلى أن المستكشف والمستشرق الفرنسي**كاميل دول** وصف البدو الرحل في الصحراء بكل أشكال التعصب الديني والبربرية والتوحش، إلا أنه تحدث عن العائلة، وبخاصة وضع المرأة الصحراوية بإعجاب شديد.